

قصص

ناصر الحلواني

غوايات الظل



قصص

غوايات الظل

ناصر الحلواني

لوحة الغلاف للفنان عمر جهان
خطوط الغلاف للفنان منير الشعراني

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى 1991

المطبعة العصرية

رقم الإيداع: 1991/8600

ISBN 977/00/0232/5

إلى

إسماعيل بن محمد الحلواني

و

عائشة بنت شيخ الحكايا

معارفي المنوحة

و حروف في المجبولة من جلال وجودهم

تَدَاعِيَاتُ الظِّلِّ

هناك،

في قلب الشمس المزهوة بوحشيتها،

ثمَّ ظلّال حية.

شُرْفَة

الكرسي الخيزران المحني الظهر، وأمامه المنضدة الدائرية الصغيرة، تغطيها جرائد اليوم، إلا حيث يوجد فنجان القهوة السوداء، وحول الأرجل الخشبية الرفيعة، تتناثر جرائد الصباحت والأماسي الماضية، تتداخل خطوط عناوينها الضخمة، وصورها الضيقة، وحروفها الصغيرة الكثيرة، المطموس بعضها بقطرات القهوة القديمة اليابسة، وبعض مخلفات عصافير اطمأنت إلى هذا العالم الصغير، وحبّات أرزهِ، وفتات خبزه الذي ينتظر قدومها من جهة الشمس، التي اعتادت المكان، وألِفَت أشياءه، فسكنت في أطراف الجرائد، وحنيات الخيزران، وفي الخربشات الحية على ذراعي الكرسي، وبضعة أصوات قليلة متشابهة.

وفي الأمسيات الباردة والدافئة، لم يكن يؤنس هذا العالم الصغير سوى مصباح خافت، يضيء للأشياء، وللجسد القابع في كرسية، كزمن يمضي في صمت.

قصيدة

القمر في السماء بثر ضوء، يفيض بنوره على قبة الليل، فينسكب
ضوءه كخيوط ألم، على الأسرجة المعلقة في جنبات بيوت متهالكة،
وعلى حنايا حبات برتقال، ينجذب كقلوب أصحابه إلى أرض غير
بعيدة... بعيدة، وعلى خوذات الجنود المنصويين في أول وآخر
الطرقات، وعلى التراب المقدس حيث سار من زمن أنبياء.

نور نهاري رائق، يمر بالدروب، وبين نساء أوراق خضراء، محروقة
الأطراف، يلمع في لحظات الصمت، ويخفت في زخات الدوي الحارث
للأفتدة الماضية، عبر نزوات العنف اللاهي، إلى حتفها. وينفرد على
الموت المشور في طرقات المدينة المأسورة، وينطمر في الوهج الفوسفوري
المشتعل في فضاءات المدينة المعزولة حتى عن سمائها...

وبانسيابية، يناور النور المرصود، ويفر من الحريق المترصد له ويعبر
بليونة الضوء القمري شفافية زجاج الشاعر، القابع في سكون وحدته،

المائل على كتب الأسلاف، يخط في لغة الغضب عناقيد حبه للطفل
يرضع الدخان المسيل للدموع والشيخ يحمل جسد ابنه الدامي، يواريه
الوطن، والأم تحمل وعاء ماء مخلوط بروائح من كانوا معها بالأمس،
وما عادوا، ومن سمعوه يرتل فيهم قصائده.

يغمس طرف الريشة في المحبرة، ويرسم الحرف الأول، للكلمة
الأولى، في البيت الأخير، حيث يقطن المهمومون، والمطاردون،
والمأسورون، والشهداء، وينهض، يرنو عبر زجاج نافذته، وعلى
الزجاج، تمتزج ملامح وجهه بدائرة قمر فائر في السماء، يفيض بنوره
الرحيم على الدنيا من تحته.

تطمس أنوار هائلة لسيارات عسكرية كل الضوء والملامح، وتحرق
الزجاج بوهجها المتأرجح فوق أحجار الدرب الضيق. يعلم وجهتها،
يفتح بابه الخشبي العتيق، ويتجه إلى كرسيه، يدفعون صخبهم إلى
وحدته، ويرحلون به والأوراق.

وفي الضوء الأبيض الرائق لقمر المساء، ينظر إلى جدران بيوت
المدينة السارية، فيلمح حروف قصيدته المكتوبة توا.

رؤيا خروج

البحر صامت، يخيم عليه الهدوء حتى الأفق.

هكذا يكون الأمر في موسم الصهد المشمس.

وفي قلب المحيط الرملي، المترامي الأطراف، بين المدن الصاخبة بهمومها، ووشيش البحر اللاهي، يقبع السور المغبرّ بأزمان الوحشة والوَحدة، يرتفع فوق المار حيث يلامس السماء، ويمتد حتى يكون كذؤابة نصل يطعن في الأفق، ويرسم تخوم سجن، ملقى في فضاء رملي متاهي الحدود.

وفي جوفه لم يكن صوت، سوى رقرقة ماء يتساقط بطيئاً، من صنبور وحيد متعلق بالجدار الصلد، تهبط القطرات في ثقل، تغيب كتلتها في البركة الصغيرة المشكولة من قطرات سابقة، فتنشط موجات ماء تبدأ دائرية، ثم لا تلبث أن تنكسر هرمونيتها بالاصطدام بجوانب الحوض الإسمنتي الممتلئ إلى حافته، فتفر إلى شقوقه حيث تجبرها الخدوش على

الاستسلام فتهاهى في خضوع إلى سائر الماء.

تنشق الأرض، ذات الصفرة الترابية المكتومة، حول الحوض، عن
خضرة شاحبة، تميل إلى السواد، لطحالب مجهدة، ترعى خيوط الماء
الهاربة.

ومن الزنازين، التي تنغرس قضبان نوافذها في صلادة الجدران ،
يخرج كل رجل في دوره، يحمل دلوه المعدني الصدئ، يفتح الصنبور
لآخره، يضع دلوه في الحوض، يتأرجح لبرهة، طافيا على سطح بركة
الماء القائمة، وما إن يسكن ممتلئا، وتغيب جنباته المتعرجة في قتامة الماء،
حتى يحمله صاحبه، ويمضي، ويجيء آخر، وآخر، وآخرون.

بعدهما تنتهي نوبة النظافة، ويأفل نهار آخر، يعودون ليملأوا لحياتهم،
نفس الدلاء، ونفس الماء، الذي لا يعلم أحد من أين يجيء، ويعجبون
لسيولته برغم كل ما يحمل من أشياء لا يعلمون كنهها.

ويذهب كل إلى زنزانتة، يضعون الدلاء في الزوايا، كذخائر ثمينة،
ويبدأون نشاطهم المسائي، الذي يحفظون به بعض ما لديهم من وجود
إنساني، فيستخرجون الأوراق المخبأة في فراغات الأبواب السفلية،
والأقلام المدسوسة في أرغفة الخبز، المركونة بإهمال، وكتبا يحفظونها في

صدورهم، ويشرعون في مجاهدة النسيان والغربة، حتى لا ينحت الموت المحيط صخور صبرهم، وفي ترطيب نفوسهم، وعقولهم، وأرواحهم، حتى لا تؤدي شدة الوحشة إلى تيبس وجودهم، ويتهيأون ليوم الخروج، سواء إلى أرض، أو إلى سماء.

وتبقى القطرات الثقيلة مستمرة، تملأ الحوض بإصرار، يسمعونها في عمق الليل، تُذكرهم بالزمن الماضي فيهم، وبالكائنات المخضوضرة النابتة في صرامة الأرض، تصارع سواد العفن، وجفاف الريح.

وذات ليل، رآها الجميع، ناشرة أشرعة لها لون غريب عن ألوان حياتهم، قاموا، وكل يرمق عين صاحبه، فعرفوا، دون أن ينطق أحدهم، كانت رؤياهم جميعا.

وذات صباح، كان يمكن لكل من يذهب إلى الحوض أن يراها، مثل زهرة ليالك، تطفو في ماء الحوض، ومشرعة للشمس الجهورية، ولعيونهم.

رأى جميعهم شراعها الكتاني مرفرفا، متألقا، في رمادية الأفق الإسمنتي، بادية كالحلم الهائل في عقل طفل صغير، لم يتحدث أحد، لم يكن أحد يقدر على الكلام، كان لعيونهم الصوت الأعلى، وقالت كل

عين كل شيء، لكل واحد.

ملأوا دلاءهم في حرص، وملأت التساؤلات رؤوسهم :

" كيف يمكن لها أن تحملنا !"، "كيف ستخرج بنا".

ثم طرحوا عن أذهانهم التساؤلات، وغامروا بقبول وجودها.

وغادر كل في دوره، إلى زنزانتة، لموا أوراقهم المخطوطة، شروحهم، أذكارتهم، كتبهم، وخطابات لم تُرسل بعد، وما كانت، وبضعة أشياء، ورؤيا واحدة، تطوف بالأنفس جميعها، الكامنة في معاقلها، ترقب الفجر، ولا تنام.

وفي غداة اليوم التالي، كانت قد غادرت الحوض.

وفي قلب السور البعيد، في الصحراء البعيدة، لم يبق سوى زنازين خاوية، وحراس يمسحون غبار الدهشة عن عيونهم الخشنة، وبضعة أقلام متناثرة، وورقات بيضاء تحملها هبات ربح هادئة، وصوت قطرات ماء، تهبط كثيفة، كزمان يمر، إلى طحالب الصحراء.

دائرة العُشبِ

ساعة مضت حين بدأ المطر في التسارع خفيفا شجيا إلى حديقة العشب الدائرية، ومدَّ المايسترو ذراعه إلى أقصى استطالتها، محيطا بعصاه الصارمة الدقَّة النشوة الكبرى لكمال النغمة الأخيرة، لئُنْفذ في قوة فجائية عصاه في لحظة الانتهاء، ويسكن في عمق، مجسدا اللحظة ذاتها، في فضاء من الصمت البادي كموسيقى آخذة في الرحيل. يحوِّم التصفيق من حوله، يدور إلى الجمهور، وتقف الفرقة الموسيقية. ويبقى هو جالسا، يخطُّ في الفراغات المتاحة في تذكرة الدخول جملة أولى.

يخرج من الدفء المخملي للقاعة، إلى شتاء الشوارع الذي يخلق دفأه الليلي، يقف عند المدخل، بين الباب الخشبي المصقول، المحلَّى بزخارف النحاس ذات الطابع الأرستقراطي، وبين الدرجات الرخامية العريضة المؤدية إلى الشارع، يتابع قطرات المطر، تعكس توالي انطفئات المصابيح المحاطة بالمرسح، وتندفع إلى أبر العشب اللينة، لتصبح القطرة قطرات،

والقطرات قطر متناثرة، تمسد المتون الخضراء، وتذوب في الأرض.

يرقب ابتهاج دائرة العشب والليل والمطر، والخارجين، وهمهاتهم الهادئة، يركض البعض إلى سياراتهم، ويسرع آخرون عبر الطري، يتابعهم حتى اختفائهم في الزوايا، أو في مداخل البيوت للاحتماء المؤقت، ويبقى، يبحث عن فراغ لا يأتيه المطر ليمضي فيه، وفي هدوء يسير، وكأن دفاء صباح شتوي يغمره.

يمر بباب جانبي صغير، يجتازه العازفون، يحملون آلاتهم الموسيقية في حقائبها السوداء، يمرون أمامه؛ كهمل يحمل في جهد آلة التشيللو ويحتمي من المطر بالحوائط وياقة معطفه البالي، وعجوز يمنحها بياض شعرها عمرا يناهز عمر "كمانها". رآهم فرادى، يهرولون عبر الطريق، وجوها مفصلة، كيانات مفردة، أدركها منذ دقائق كعناصر جزئية تشكل كلاً متألفاً مُصاغاً في تصاميم موسيقية.

في قلب الضوء الباهت للمصباح الوحيد، خلف الباب الجانبي الصغير، رآها، تقف ساكنة، كلحظة صمت موسيقية بين لحنين، تخشى المطر، وهو أمامها، ساكن كنغمة تشرف على صمت موحى، لا يشعر ثقل الماء بين كتفيه والغيمة الماطرة، يرقب عينيها الجائلتين بين السماء

المحجوبة بالغييم والأرض المنتشية بالموجبات المتألفة، تتمتم بحروف لا يسمعها، تعاويد صبية ليتوقف المطر، أو لتجتاز عبر المطر دون أن تبتل، ويبقى يرئوها، ككل منفرد، تحمل كمانها، بادية لحسه كلحن غير مُمازج، رائق الأداء، خارجة من كونها عنصرا بوليفونيا، بادية كجملة أساسية، كسحبة قوس متقنة على وتر حر.

أما هو، فبدا لها كجسدٍ غير مُعتاد، مكسو بالمطر، ومثير للرجفة، أقلقها سكونه المشدود دون خوف، فهو صامت، لا يتحرك، ولا يتوقف عن النظر إليها، ويظل، حتى يخرج العازف الأخير، يحمل نايه في حقيبتة السوداء الصغيرة.

ولما بدأ الباب في الانغلاق، لم تكن هناك وكان الضوء الباهت وحيدا، في الداخل الآخذ في الخفوت أمامه، لم تخرج، ولم يعد يراها، نظر إلى السماء، سقطت قطرة كثيفة على شفثيه، شعر بالعطش يجتاح جسده، وكان المطر ما زال ينهمر صاعدا في اتصاله، غير آبه بما يحدث.

ينظر إلى الساعة ذات الوجوه الأربعة، الواقفة في قلب دائرة العشب، يدور حولها، كل وجه يعلن وقتا، ولكنها جميعا تشي بليل ما زال في أوله.

بدا له أن العشب الراقص والمطر يمارسان لحظة وجود صافية، فكّر
"في صباح الغد ستكون ثمّة أعشاب صغيرة رائعة تزاوّل تاريخنا يبدأ
الآن".

والآن فقط، يشعر البرودة تجول في أقاصي جسده النحيل، ترتاده
الشوارع المظلمة، مشبعًا بالموسيقى، يخفق من بعيد كرجل من ماء، لا
يعكس ضوء.

حَدُّ الأَمِّ

أن يكون الولد، أن تكون مغامرة العيش اليومي، أن يمضي على الحد المنصوب بين الطبقة الدنيا وطبقة دنيا، يحمل رغيفا، ويقربُ عمره لأسيادٍ، يتألهون كأنصابٍ من حجر، تُصدر صفيرا حينها يمر الهواء في خرومها، لأجل أن يهبوه خُطوة ليرجع بها عنهم، وينصبون في روعه: يكفي أن تهبنا يوما من يومك. يُلقى إليهم برغيف من رغيفه، وله لا يبقى غير كسرة، مغموسة في الموت، العالق بمشارف نفسه المجروحة، ويصوم عن الحياة، يبذل وجوده قرايينا، ويخطو على الحد المنصوب، بين طبقة تشاءب وطبقة تسأل، ويمضي بين جذوع اليوم، المنصوبة على الحدود، المغروزة في قلبه.

رَجْفُ الآلهة

أن يكون الباب،

شرائح من جذوع الأرض، وأعمار الضاريين بالنصال في رحم
الثمر، ونقوش ملوك يخطون في الظل الخشبي، يحجبون سماء ممنوحة
للأزقة، وبينون ممالك خفية، معشقة بالميلاد بنوافذ البلوط اللينة،
الموشاة بعرائس الجدران الشُّهُق، تشج أول السماء، مرصعة بالجمال المهيأ
لبصرهم الملول، يتشاهقون بشرّافات الجوانب، لتهب الكائنات خلف
ظل الخشب حكمة السكون، ويمدون الممرات، مزينة بألوان البرودة
المبتهجة بالدّوس، وبالخطوات العارية الموهوبة للسفاد.

تترى النوافذ في وجه النوافذ، تعاشيق من عناصر أولى، تمجد الظل،
وتُخفي عيوننا مخلوقة للكنن، ونسوة تتقمصن الزمن في مرايا أواخر
الممرات، وتبوح بأخشاب تحترف الامتداد، لها وحدة الزمن وتكثُر
المواقيت، في صدرها حفور وجوه أقامت، ومتون سيوف أعمدّت، بين

رجفة الوجه وسكنة الجسد الأخيرة، وأسلاف ملوك، رسوم في أقواس
المداخل، وأختام المواثيق، وآلهة ترقب أزمان الحارات، من خلف
مشربيات العشق والمعشوق.

مَتْنُ الظِّلِّ

يصعد اليوم، فتُشرف على السبل ظلال، لها مذاق الأسوار، وقوام
مزاليج النحاس على أبواب المدائن، توقظ الحركة في شبائك الأزقة،
ودجاجات تفيق في ركن جدار من حجر رطب، وفي غبار الدرب
المتشاب تجلس امرأة، تستند إلى جدار حصن مبهم، تهصر ثديها الصابح،
لتقطر في فم وليدها قوتَ نهاره، وتريق في مسامعه حكايات الممالك
الخلفية، وتواريخ أسوار تُخفي جنوداً شُرساً وأفراساً شَكِسَةً، وتحكي
عن بقايا خدوش ملوك على هوامش بوابات كانت، ومازالت مسطورة
في ضلوع الحارات، تقطف له وردة من نحاس القوس الملكي، وتعلقها
على صدره، فتفتح مداخل الحصن، يسيل بعض من شمس سماء
الداخل إلى تراب الطريق، تتوالى خلفه الأفراس الحائمة، هائجة، تمزق
النور الهارب إلى الدرب المترب، وترجع إلى تترسها.

تلم المرأة أشلاء النور المثورة، تمسد به صدرها، وتُكمل للوليد
حكاياتها.

رَتَائِمٌ عَلَّقَتْ بِالرِّيحِ

يجوز أبواب المدائن، يحمل حرفه الوحيد،
ينازل الريح، والموت اللابد في الأخبية الممزوقة بالصمت،
محتميا بمعارفه، وبعض حبات من تاريخ،
وشرائط معتودة، ما زالت.

تميمة

في الرَّبِّعِ، تحكي المرأة للمرأة، ولبناتٍ يرتقبن أوان تنسونهن، عن
تميمة.

نُقشت بحروب الأسلاف، وحروف من وحي نبي، وسرود من
أزمان السالك، ورسوم خافية، تحمل حاملها، وتناى به عن شغف
الطعن الكارِّ، وفلول الخيل المروي.

وفي الحومة، تتغير أشرطة اللحظة، وفي مرايا النصال، تتواتر أشتات
الأجساد، والدروع، والأفراس.

وفي قدر من لا زمن، يكون لا شيء، بين التميمة والموت.

لُحَّةٌ مُغَلَقَةٌ

وما إن يفتح لي الباب، حتى انسرب إلى وجوده، يَبْسُ لي، ويشير،
أتمجه إلى منتهى إشارته، أراه، على الحائط؛ فارسا، يلوّح بالنصل الأبيض
المخرمّش الحدّ، على صهوة الفرس المهيأ للولوج في طاقة النور، التي
تؤطر لمبة الجاز، المعلقة أسفل الغمد، المنتصب في حدة، منقوشا
بحروف ملتبسة، تتداخل مع أرابيسك الفرع المتلوي، المخضر في زهو.

كادت حممة الفرس أن تطيح باللهب الخافت، المؤرّق، زرقه
تتوالد عن صفرة شاهية، يُلمح إلى النصل: "له في كل حول ألف رقبة"،
وإلى الفارس "وألف امرأة"، "يمنح الأرض الدم، وشعوبا تأتلف من
صُلبه". يتسع النور إلى حيث تكون اللمحة، الإشارة.

أسأل: "اسمه؟"

يقول: "له في كل واد اسم، وزمن، ودماء غافلة عن حين تأتلف
التراب".

ويعيدني من تهوامي في دلائل حكايته، وحوله يكون العشب، زهوةً
تحتمل خلاصة حيوات مرّت، وأخرى لما تكن، وسلافة حكايات،
وطيور طالعة إلى سماء الحائط.

صَهْدٌ عَابِرٌ

شمس الظهيرة تقف على حافة البيت الحجري في أول الشارع الصغير، والدكاكين للشمس بلاد، وللدكان الصغير طعم السر، بلاطات عتبه عالية، تمنع غبار الطريق، وبابه المسكوك يحوش نور النهار عن الدخول، تظل عتمته الوحيدة لها رائحة الحرافة المحترقة، لون السكون، وكثافة الهمس الزاحف على حوائط الدكان الباردة.

الدكاكين للعيال معانٍ، لدكان أم الخير ملمس حدوتة لم تنته، يتسللون في الليل إلى عتبه، يتحسسون الأنحاء المظلمة، كانت تراهم، وعيونهم الصغيرة اللامعة، ودهشتهم، والنور خلفهم، ولا يرونها، تناديمهم، يبحثون في الفضاء المبهم، ولا يرونها، يعودون بذهولهم البكر، ويركضون إلى حيث الشمس، ويحكون لبعضهم البعض عما ظنوا أنهم رأوه، وتستند واقفة إلى الرُّخامة الباردة، في قلب الدكان، وابتسامة هادئة تكسو وجهها، ومن حولها يعبق المكان بالرائحة الثقيلة، الصاعدة في حدة، من صفائح المخلل المتروسة أسفل البنك الرخامي، ودُكنة

احتكاكات ثوبها بالأشياء حولها، وأشباح الأرفف البدائية، وقتامة
زجاجات ملفوفة بالسيلوفان المتكسر، لا يمسه إلا العناكب،
وأصابعها الدقيقة العجوز، والعابرون ليلا في كونها الرحب الضالة،
يجتازون الصهد الراحل وغروب الشمس، ويسكنون إليها.

أنا أنت

الضوء في لون الحليب الرائق، ملموس بصُفرة الجدران المحيطة
بلمبات النيون، ينثال النور من حنياتها، تتشربه تغضنات السقف،
وعروق خشب قديمة، فيرتد كخيوط شبكية واهنة إلى المقام الأخضر،
فتلمع حروف القصيدة المذهبة، المغزولة في جوانبه، فينعكس مختالا إلى
الرؤوس الهائمة، تتطوح بين الضوء والقضبان الخضراء للشباك
المفتوح دوما، بين الحارة وفراغ المقام.

يتردد الإنشاد غائما رخيصا، وتتكاثر الشمعات على حافة الشباك،
فيشيع نور يغالب برودة الضوء السابح في حبات العرق السخينة،
وصعود الإنشاد قويا هادرا، مثيرا لرذاذ الهواء، فيندفق نسيمه إلى لهب
الشموع الموقدة، يحمل تطوحاتها الوهّلى إلى جنبات الحارة الهادئة، فلا
تكون ظلال، ويفوت نورها إلى ظلمة دكّان "أم الخير"، حيث تبدأ
تتعطر، وتلف شعرها الأبيض بقطعة ليل، وتحمل شمعتها، وتخرج.

للمسكة بها،
تمضي في دكنة الثوب والليل، إلى شباك الذهب الدّاعية، فتبدأ الأصوات
المرتلة في الخفوت، ويطول زمن استغراق الرؤوس في التطوّح، وتأخذ
العيون المغمضة في الإفافة، والأذهان في الانتباه، إلى خطوات الآتية،
حتى يعلّق بصرهم وصمتهم بيدها، تضع شمعتها، وتدخل، فلا تلتفت
إلى أحد، وتتهادى إلى المقام الأخضر، تضع كفها فوق حروف القصيدة،
المرقومة بخيوط الذهب، فلا يعدّ بين من كلماتها إلا “أنا أنت”،
كضلفتي باب يفتح لها، فتدخل، وتعود الحروف إلى حيث كانت،
وتظلّ الوجوه مشدوّهة، وتمتدّ الأكفّ الوجيفة، تنبسط على الحروف
حيث “أنا أنت”، فلا يتحرك شيء، فيُنشدون للذهاب القصيد،
وتتسارع تطوحاتهم، ويدويّ الإنشاد في أرجاء المكان الصغير، حتى
يتصدع بياض الضوء على الجدران المتآكلة.

ويظلّوا، حتى تلج الشمس في طاقة الدخول إلى المقام، فيغدو
للقصيدة المرقومة لون الفضة المسبوكة، لنهار طازج، يفيض نوره إلى
الشباك، ويرحل حيث الفتائل المسوّدة، تنمحي في ذوب أجسادها
المطفأة، ليغيب في لهب الشمعة الوحيدة القائمة، ما زالت.

كُنْ

في الليل، ناديتها، فلم تُجِبي.

أفكر لو أن الشمس تبقى مُوقدة، فأفتحُ لها في الغروب مَكَامِي،
أغويها على الدخول، وأحلمُ بنهارٍ لا يتحول أو يستسلم لنهايات
الأرض والبحر، ولو أن البيضاء المختمرة بالشال الرخيص السواد
تملك جماع مخيلتي، أسمع نَفْسَهَا يخرج ساخنا إلى وجهي، يقول لي:
"وبعدين معاك"، أقول لها: "أحبك"، فتضحك، وتضمنني بوهن
عجوز إلى صدرها، فأحسه طريا، متهدلا بها يحمله من زمن، يأخذ بي إلى
حُلم سفر بعيد، وليس سواي، وكون مقدود من ملاء وجودها.

هل سَوَّلَت لي نفسي، يومذاك، أن أراها، المحجوبة في سِتْرِهَا،
البيضاء المختمرة، التي لم أرها قط، وأتبعها أينما تذهب. وهل كانت
حكايات الحارة عنها تُخبر بما كنت أرى وأعرفُ، هم لم يعرفوا أبداً، وما
كنت لأحاجهم فيها، فقط، أسمعُ، وأصمتُ، وأفكرُ لو أن الشمس

الآفلة تبقى مُوقّدة، لأرى المحتجبة بالليل يكسوها النور.

وفي الحارة الطويلة، الضيقة، المصفوفة بالدكاكين، وروائح المكمون في قلبها، المحدودة بالبيوت المركومة الكامدة، المهتاجة في سكون، تجيء أصواتهم، عن الواحدة من غير رجل، تدور في النهارات والليالي، فتُدهل عنّا رجالنا، المدنّسة لمقام شيخنا، راعي المتاعة، وجابر التائقة إلى الخلاص من زمان وحدتها، وعن شمعاتها المسوسة، التي لا تخلص أبداً، وهمسهم عن الغائبة في الليل، ورغبتها الأبدية.

وأطوف في تفاصيلِ المداخل والدكاكين، في قضبات الصديريات اللامعة، وروائحِ العطارة، والخيزران، والزجاج، والجلود، وقطع الحلوى، والحروف الناعمة، الساقطة من ثنّياتِ حجاب، أبحثُ عنها، أروح إلى ریحها الحارة الحائمة من حولي ولا ألمحها، فتلوح لحسبي المضمون به، فأحاول اللحاق بها، وأفلح؟ لا أعلم.

وأرمح، لا أحملهماً إلا اجتياز الأماكن، أرومها، من غير أن تدفع بي أيدي أصحابها إلى ترابِ الحارة الهامد، ومن غير أن يجري العيال ورائي، فلا يدعوني إلا بعد أن أحكي لهم عنها.

وأفكرُ في أول المعرفة، حينذاك، في النور الوحيد الخارج من طاقة

أعلى باب المقام الصغير، بين مُنتهى الحارة وأول العالم، والمساء المسكون
بخرافةٍ سلالاتٍ سكنت المكانَ لحين. وكانت تبين، بدنٌ من زجاج غير
منظور، يفيضُ بمادته، امرأةٌ من ماءٍ وترابٍ هواءٍ و نارٍ، لا يحدُّ تأرجحها
الممسوكُ شيء، لميلانها بريق الخفق المتماوج على وجه نهر يوحى إليه.

أيدرك المجذوب امتزاج الأرض والوحي، يخشى أن أحداً يراه،
فأختبئُ في العتمة الدافقة، وأسوفها، تتمايل، وتغني، ويأتيني صوت
بكاءٍ، وريخٍ نعناعٍ مصفَى، وخيالٍ الشيخ القائم من مقامه إليها،
يلتحفُ الكُسوة الخضراء، المرموز عليها شعرا، يحمل لها شالها الأسود
في خشوع، ويبيكي، يفرشُ الشال على الأرض، أمامها، ويلقى عنه ثوبه،
فلا يكون شيء، وتلقي عنها مادتها، فلا يكون شيء، ويبدأ الخلقُ
يحضرون، يلقون عنهم أرديتهم، فيكونون بخارا رقيقا يتكاثف حولها،
فأقول لها "أحبك" من مكمني، فتوجي إليَّ "أخلع عنك رداءك
واتنني"، فأنفدُ من العتامة، أراكم روعي ووجدني إليها، أخلع عني
رداء مادتي، وأصير إلى شالها، وجودا خالصا.

سفر الواحد

مقدس هو الظل

وترانيم النهار الآفل في كنف الريح، تذهب إلى منتهى اليوم، تحكُّ
جدران بيوت الحي القديم، وحتفَ المملوك المذبوح على بوابته، وتنفذ
إلى المقام المكسو بخضرة تؤوي فراغا.

مقدس هو الفراغ

تشاكيل المحراب، حكحكات الأقدام الحافية على البلاط الترابي،
قصائد العشق والمعشوق، رسوم الأبواب والنوافذ، دندنة الذاكرين،
والواحد، في أول الحارة، يهلل:

"أنا المعنى بالسفر المقيم، رحلي زمان، آن دائم"

ويخبط بعصاة البوابة الهائلة، فتتأرجح الرؤوس المعلقة، وتقطر
دمها، ويردف: "سأكون لكم اليوم يا أبناء التراب ندا"

فيرجمه الذاهبون بصمتهم، والجالسون يرشفون الشاي وأقداح
الوقت المخمَّر.

أُيروَنه، أيحكون عنه؛ الواحد الضال، الملموس بساكنة العتمة، التائه
في الحارات، يقذفه العيال بسخريتهم والأحجار، وتغيب به الواحدات
في ليل وحدتهن.

يدلُج، حاملاً أسرار الجذب، لذة السؤال، قوانين الولوج إلى شقاء
العزلة والحفاء، وعصا غليظة، لدورانها لمعة الماء، تتغمد عقدة شال،
يتدلى صرة، تخفق بأسرارها، وتقر بثقل حكاياها، لها سمت المادة
الأولى، وملاء الإمكانية، وقدر الهيولى، يحملها كإله أسطوري، يبحث
عن فراغ يبيت فيه وجوداً ويدعه لمصيره.

يجتاز الصخب، والبيوت الكامدة، وعبق الدكاكين المحرَّزة
بالمُلبَّس، والمدينة، واللغز الرابض في مغاليق الأبواب، ويمر بالمساجد،
والمقاهي، فيرمقه المصلون والواصلون، يذهلون عن غيابهم، فيختفي.

أيسأل أحدهم عن السالك، أين؟

"وهمَّ الدراويش بيروحوأفين؟"

"تلاقية كَنِّ في عتمة خرابة أو ضلمة قرافة"

يراه ساكنو الخرائب المعتمة، ويسمعون هسهسات خوفه. أتراه تهباً للبقاء، أم تُراه تهباً للرحيل، هاذا حرا، على صهوة فرس موهوب، يسلك على الشمس، يخب بفيضه فوق سر الزجاج، ويتكشف للبوادي مثل وحي، فتصدع حبات النور، وتُهرع عن سبيله كائنات الموت اللابد في الخطو، وضرام الكواسر ناهشة النبوءة، فيمرق غير عابئ، بغير عنان أو سرج، وُصْرّة محكمة على العصا والمستور.

أيتبع النّجم إلى حيث "هي" تتحقق، أم يزجر الساريات إلى حيث يجفل الظل والقلب، تتردد أفكاره ورققة جسده على فرسه الجموح المسرّج بالغبار وشظايا النور.

"أترؤم الغاوية القديسة حتفي أم وصلي، أم وجعي في اتباع القلب إلى حيث تكون؟"

ويخب خب الشاعر، يتحلق بالقصيد، ويرواح بين القبائل، يستبحث الأرض، ويدسُّ المعارف كلها في ثقب الحرف، فتتولد البلاد، وطن، بين الماء والماء، وجهتُّه الناسكة الغاوية، تنسج المواقيت على الجدران سنابل وصقورا، وتنتظر الواصل إلى مقامها.

تقول له: "أنا الزمن الفرد، أَرْضُكَ، فأدخل فيَّ" وتتهياً.

يقول: "الموت خِباء المرجوف" ويسميها.

تقول: "نُون، أُلْفَة، صَبَوَة، رواء" وتسميه.

تتماس الأسماء لَوْقَتَةٍ، ويرحها، أرض تُنبت الأنبياء والمجازيب،
يحمل الوجود، يبته في النواحي، ويغادر.

وتسعى بحملها، وصرّة محصنة، وفرس عارف بدروب النجم
والمدن، تغشى أول المدينة، تلملم الحكايات والأسرار، وحبّات دم
الرأس المعلق في ظل البوابة.

أول الرؤيا

وفي الليلة الثانية بعد الألف رأى أنه نبي، غادر قبة الصوف، يُطلق العشار، ينثر ما بقي من غذاء للساريات في بيدائه، والطائحين في المدى، بين شجرة الشوك وكُثيب يجهر بالشمس، يحمل عصاه الغصن، يودّع شجيرة نابتة على حاشية البئر، يجمع بعضاً من أوراقها، وتركها تحلب الأرض، ترتقب زخات من حزن السماء، ويمضي، يفيض بظله على حباب الرمل المنحدرة من جهة الشمس إلى غور آثاره الرفيقة، فتتواتر صفرة غير معهودة، تمضي معه، خلفه، بطيئة، كأنها تدرك أن الريح آتية لا ريب، وما يزال في خطوه، حتى أدركته الليلة الثالثة بعد كل لياليه، فلقبها وحيا، فحدّثها منفردين في فلك من غبار متراكم، ونخيل بكثافة النظرة الواجدة، ونوقٍ هوّامة بين ركام الغبراء ووهم التمر، حدثها عن أول الرؤيا، أن يكون درويشا، هاذاً حراً "أفرغُ للمعرفة والبوح، أجوبُ الدروبَ ومعجزات القصيد والبشر، ولا أعود، أكون حيث أكون، برياً، دوماً في مكاني، أعبُ الزمن عباً، أنغمر في الزمن حتى

ينساني الوقت، أصير كلمة أولى لعبارات متداخلة، لقبائل مبعوثه في كنف النخيل، مموهة المسالك، طَلِقَة الوِثاق، أو نقطة تجمع الروح والجسد في لحظة يفنيان ليكونا ثانية، أجادل الأتراب، وأمنح الحرف تعيُّنه ومعناه، أكون الأيسَ كَلَّه والليْسَ في آن".

يقصد إلى مسلك غير معلوم، بارح الخفا لِدَاتِهِ، صائر كما رأى أنه صار إلى نبته، يروم القبائل، والنوق الشاردة تيرثُها، تُعْطيه زاد السبيل.

كان لليل السالك فيه ألفته، وكانت في بسطته رايات تسنمت الريح، مشقوقة الطرف. إشارة تأتيه أن للرمز جسدا يحتشد أسفله؟ فيوقن أن اليقين في مجادلة أصحاب البيارق، يهْمُ إلى ساحاتهم، فتضوّعت في خيامهم ونخيل السهل أحرُفه "أجيء لجهلكم بجهلي فهل تجادلون؟" فصامتوه.

وما كان لصهيل الخيل المُحاكَة في فروج الأخبية صوت.

وما كان للربيع المحتشد في اضطرام الظلال والنار صوت.

وكانت الإبل تتسافد في وهج الضوء.

تثير الهجر المؤلم قائماً والسالك في صمت، ينظر إلى خَلْفٍ مشتعل

بالسكون والموت، فلا يرى شيئاً، ويمضي إلى آخر الرؤية.

مراودات الوجد

حطّ في كفي كتابا، منقوش في أول المتن أول الكلام: "دع عن سبيلك أستار الهوى وأسلك سبيل الحقائق".

تفجأني بارقة الوصل، يجل في حال سكوني رسمها، أهرع إلى مكمني، وأرتقب، قالت: "لا تبرح الأرض حتى تأمن الأرض"، وفاضت على حيرتي بحبات من وجدٍ معتكف في جنباتها، منقوش عليها آيات نسكها إليّ، تستودعني إياها.

قلت: "لك أبقى بدوام ترحالي"، وأروح إلى أقصى وهادها، أحطّ في أشجارها رسوم الليل والنهار، وأرتاد عشبها، فألقاه، يلتمس في الليل العبارة، ويلجأ إلى وحدته وحكمته، أدنو من وهج كونه، فينأى عني الظل، ويدرك هو حضوري، فيحلّ في سمعي كلامه: "متى عرفت أدركت سبيلك، ومتى بقيت في بدنك صرت لم تدرك".

تهيم رجفة معرفتي بين حدّ الضوء وحدّ الظلام، فأؤوب من سفرتي

فيها، مخضبا بالماء والريح، وأسرع في الرحيل، تستلبثني: "برهة نستملها، نجول في أرجائنا، يرتادنا اليوم ونجوب الأماكن"، أرنو إلى نواحيها، وأعلم فيها نقوشي، أقول: "في مدى الحروف أراك، أبتغيك وأبتغي الوصول". تمسد وحشتي بأنسها، تراودني عن سبيلي، تبعث في رهبتي الريح، أستوحش الأحوال وأذكره، تنأى عن حضوري، فأتبها، ألملم أغراسي من مائها وأغراض ترحالي، وكتابه، وأسير، يتابع صوتها خطوي "سير إلى مشيئتك وإلى مشيئتي أسير".

يغشاني الحزن والمسافة، فيلقاني، وألقاه، ونشرع في سفرنا، يجتاز بي الغشاوة قائلا: "خطاك حرؤفك، فسير إلى أرض تبتغيها"، ويمضي معي، يكالمني، أفض طوايا الكلام، أجوب في أنحاء بدائي، أتشرب الأماكن الهائجة في بصري، وأظل بين شوق لنهارها، وبهجة السلوك في الليل المنكشف، أنتبه إلى عبارته "يضمني المعنى بصمته، وبصمته يبرأ".

ويسكن إلى وقته، وأنغمر في خوض سبيلي، وتحل هي في عمري، فأفتح الكتاب، وآتي الزمان كله في برهة، وأسعى إلى مبتغاي، فتصلني بسبيل وجدها الساري إلى القلب، تصعد إلى أجواز المسالك، وتتدرج في خفوت، حتى تسكن في.

صحائف الخيل

ولما كان الصباح أنبأني "ذلك يوم ينبيء بالغريب"، وصار إلى ركنه،
وصرتُ.

نرقب الآتين، يمرقون في الغداة إلى وهدة الصخب، يوفون
نذورهم، ويشعلون في دم القرايين بخورا، ويسكبون الخيول على
مذابحهم، ويرقصون في خشوع وبهجة. يقول لي: "يهيمون في لوثة
التقرب، ويفرحون". وتلوح على تخوم السكون أثوابهم، مزركشة
بألوان الثمالة، ورجفة الهول في القرايين. أناديه: "أيوفون بالدم المنذور،
ويمرحون في التراب والريح؟" يجاوبني: "يصيرون إلى تيه غير معلوم،
يحملون أعضاءهم، ويتفرقون في التراب والريح".

ويأخذ بي إلى مكانه، ندفع عن أعيننا ريحهم، ورؤاهم الممنوحة
للأرض، وينشد لي بعضا من أسراره، ونصعد إلى الموطن المرغوب،
نتنادى بالأسماء، ونظل في كلام، حتى يجنُّ علينا الليل، نهبط، نتكئ على

الصحف الموسودة إلى كفه، ونرقب الذاهيين عن وهدتهم، يتدافعون
بالمناكب، ويتحاكون، يغمهم دخان من غنج ولهات، يتفرقون في
الأسواق، يشترون ويبيعون، يلمزون الجوّاري المعروضة، ويتحسسون
خفاياهن.

يباغتنا وهج المشاعل المنظومة في جنبات طريق نهاري، يومئ إلى
الرايات المنغزة في رؤوس الخيام، تناغش صفو السماء، وتحمل الرجال
الخائرين، تدفع بهم إلى أعفار الليل، مسلوبي السلاح. يراودني السؤال:
"أمطعون منهوبو السلاح؟" يقول لي: "رهنوا السيوف بطعنة".
ومضى إلى مشارف الطريق، فتبعته، يُشهدني على الرؤية، فأرى في الخلاء
خيولا تعدو منجردة، تهيم في الأنحاء، تلهث.

يفتح كتابه ويقرأ: "سيكون زمان تهيم خيوله منجردة، سيكون زمان
..."، وتلمع حبتا عينيه، وبصمت، ينحّي وجهه عني، ويسير، أتبعه،
ينزع عن كتبه الأوراق، يصفّ صحائفها بطول الطريق، ينظّم بها
تاريخاً، وفرساناً، وحروفاً من خيول.

حرف

ولما حكى لي عن أبواب مدينتنا ساءلته: "أحدودنا البوابات ما زالت؟ أغريب يصبح من يعبرها؟"
"من أغصان زهور برية، وجذوع أشجار يكتف فيها الأخضر صنعت"، أجابني قبلما يذهب.

ألحق به، يفرح بي، يأخذني، يولج المفتاح في ثقب بابه، فينفتح مكانه، يتمتم بحروف تخفى على سمعي، ويدخل، أنبس الحرف الغامض، وأدركه. يجذبنا الاتساع، يرحل بي إلى أركان مدينته، على الطريق أبصر خيولاً ترمح، وفرساناً شاكين، ونسوة يحملن السقاية والحراب وأزمنة فائتة. يدنيني إليه، يخبرني بقديم عصور وبقايا حروب تتردد في أرجاء الكلمة، يفتح في عيني صندوقه، يؤوب بالغمد المنقوش والسيف، ويقرأ لي "سكناي القلب المتخثر"، ويقول: "مرموز هذا على النصل".
"أقبضه؟" أقول.

"للفعل ساعته، يحصل حين تكون". مجاوبني.

أمزج البصر بالنقوش، أتعلق بالأركان، ويذهب بي إلى ساحة
صلصلة، يأمرني: "أرُنْ إلى القعقة، وتبصّر سهيل الفرسان على
رماحهم". أرنو، أبصّر في الوجوه عينيه، أشهده يبرق في الساحة،
ويعود، يحمل في القبضة يرقا، وفي القبضة نقشا، يُغمد السيف، يودعه
الزمان المضمّر في صندوقه، ويرتاح في ركنه.

أسأله: "دعني أحمله".

يرد: "ستفعل يوما".

أسأله أن ينقشه على كفي، يفعل، ويمضي بي إلى أوقات قديمة، المحه
يجري في الحارات، يسعى في الحقول، يصعد أعلى النخل، يهبط، وفي
الكفّ حرفٌ، يمنحني إياه، وينبئني "اجعله في القلب يُكُنْ لك الزمانُ
المخبوء والسيف"، ويغيب.

أعبر أبواب المدينة، أصير إلى حيث يشهدني، أردد للسبيل حكاياته،
وأفتح منافذ الجسد على الكون، وأغرُسُ الحرفَ.

غُوَايَات

... عندما تكون الغواية مرقدًا أخيرًا للجسد،
يصبح للخيال القدرة على التجسد،
ولتكن حينئذ شاعرا يحبك للغاوين قصائده،
أو ناثرا يسرد وقائع وهمه،
ولتؤلف فلسفتك

جسد أقصى

"هل تعلمين البداية؟"

تصامته.

"كان الكون هاجعا... هل يمكن القول إن للكون فجأة، لعله كان يعلم منذ الأزل، لكن ما حدث أنه تصرف وكأنه فوجيء، لم يكن في الوجود ما هو غيره، فأحس لمرة واحدة، نهائية، أنه وحيد، كم هو مؤلم ذلك الإحساس، فما به لكون! أيمن أن يكون شيء أعظم روعة من هذا، أدرك منذ لم يكن أن يكون وجود الآخر في عين اللحظة التي تُعَيَّن وحدته"

قال له: "لا تجربني"

أخذها من يدها، وخرج بها، ناعسة، تكتسي بدفء الداخل، وجسد قاص. يطوف بها في الشوارع، تكلمه، وتتبع وحيه، ويسعى في نورها.

تقول: "الصبح آت"

يقول: " صبح الشوارع خاطرة، يتهاهى بخفة في الأزقة والدروب،
يغائر الصبح النافذ إلى سريرك، صبح الشوارع كلُّ، مهيب كنار
الأوليمب، يمنحك اكتمالك، فتصبحين بعضاً من وجوده، ويصبح دفاً
في أنحاءك، يُدهش البرودة الليلية التي تغشى ملامسك، فلا تعود لك
جوارح تسمع وتلمس وترى، بل تصيري أنتِ السمع واللمس
والبصر، أنتِ الصبح "

وعند مدخل النهار يتركها، تنقذ في غمار يومها لأجل زاد الحياة،
فتخوض بين الهائمين، ترداد أخايلهم، فيحطوا لها الخبز، فلما تهبط،
عين جسد، يقنصونها، ويقنصون عليها.

قالت: "كنت تعلم؟"

قال: "العلم لا يمنع إمكانية".

قالت: "أنت منفاي".

قال: "وأنت الملاذ والقربان".

تقول: "لك وحدك"

سيقول: "لي وحدي".

ستقول: "لتكن إليّ".

سيقول: "إليك أكون".

وينسيان كل ما سيكون.

وفي المكان، يكونان، ومصباح فرد، وليل بعمر سلافة الوحشة
والجسد القصي، قربان البقاء، وكلام.

"اهمُّ جائم".

"احك لي".

"أعن أوراق نثرتها، وفراري من القبض، خرافات عن شطّار
وفرسان، شغفي بالاطلاع على النوافذ، وفرحي بجلاء أسرار الجدران،
حزني، ما أراه كل يوم، حوائط صماء وأطر تحفظ صور ما بقي من الموت
والغياب، حقائب سفر، وأسنام دواليب مطفاة، نسوة يرتكنن إلى حواف
الشبابيك، سقوف واطئة، رجال متعبون، لمبات وحيدة، ضوء فقير
وأشياء، بشر يعيشون بقدر السرعة التي يمرون بها أمامي...".

"ما رأيك في أن نذهب إلى بعض القصائد".

وحينها ذهبنا إلى شجرة العهد، وصعدا، كانت كل الرثائم محلولة.

صعود فرد

غرفة مفردة

ونافذة

نسي زجاجها شفافيته عبر أجيال الغبار التي مرَّت به، في الركن، بين حائط يبصُّ على الشارع الصغير، وهلال المئذنة المندمج بالسما، وحائط يبصُّ على الزقاق المسدود بالسبيل الجاف، يرقد سرير غائم، يشغل الفراغ المتاح خلفه، ركام من الكتب الموضوععة على نحو فوضوي.

وتحت الضوء النهاري، الآتي من النافذة المواربة، تكون مائدة من الخشب المكحوتة صقالته، كشجرة عتيقة، مرهقة الملامح، يغطيها زمن من الأوراق، والكتب المفتوحة والأقلام، وأمامها الكرسي النحيل، بخطوطه المنحنية جميعها، نبتة خريفية وحيدة، ذهلت عنها أرضها، وعليه كانت، قابعة، ترتحل في الأوراق أمامها، ترتقب الجائي إلى وجودها، لتصير هو، فلا تشعر دخوله، يغلق الباب، فتؤوب من سفرها

فيه، وتقرُّ إليه.

يقول لها: "رأيتك في أبصار من مروا بي" ويداري وجعا.

تقول: "لو دانت لي النبوة لأغشيتهم عن مسراي" ويذهب فرحها.

تردف: "ولأغشيتك عن حروفك، ليكون رحلك في".

يقول: "حروفي هي القربان لأجل أن أُمْنَح معارفي، وأحوز قدرا من

وجود" ويرنو إلى عينيها.

ويردف: "تلك الفوضى، أعشقها"

تسأله: "وأنا؟" وتذهب، تداري حزنا، وتكون إليه.

تسأل: "هل نسيتني؟"

"كنت أحاول".

يعرف أن عليه أن يعيش خرافة سنين غير مُجْدِ رصدها.

ويفكر: "هي أول وثن وآخر، وأنا فيها، كلانا مسافر في الآخر،

وكلانا مقياس الآخر على حين بدئه وحين نهايته، مزاج من الأسطورة

والوحي، وتكون الخدعة مجبوكة بالرحيل، نحمل الروح المضطرب،

فهل يكون ثم موت، هل مات أحدنا أو كلانا، ليس موتا حادثا، بل هو موت حاصل، أو هو في مظنتها حياة، ألبأ في هجرتي منها إلى سبل شتى، قد يكون عليّ أن أفتح كتابا ليخبرني بما حدث للأولين، فأدرك، أو أكتفي بمعرفة هي ظن، واعتقاد بان طريقا هو أفضل من سواه أو أسوأ، أو ألتجئ إلى كهفي وأرتقب وحيًا، أو أن أجيئ إليك".

تريق بعض الماء في كفها، تمسح به وجهه وكفيه، وتبلل شفتيه، فيمتص القطرات المخلوطة برائحة الجسد التائق.

وينطق: "ها قد أعدتني مرة أخرى".

وتنطق: "أنت لم تعد!".

وتغادره، تطوف في البرية الأولى، تصير وداعا للمهاجر، تركل الباعة عند أبواب المعابد، وتستحيل رغيفا يقضمه الملوك والشحاذون، وقطرات عطر ينثرها الحبيب على قميصه، ويهذي باسمها، فتكون له نافذة تبص على السبل المتروكة للغبار، أسفار مبعثرة، ولحظة وجد، وتعود.

يسألها: "أين؟"

ترد: "أجوب في القصائد"

يسألها: "نالك الشعراء؟"

ترد: "بقدر ما ملكوا المواهب"

يسألها: "والخارجون؟"

ترد: "ولجوا جميعا إلى سريرتي"

وترد: "صرتُ لهم الوجع الموحى"

يقول: "وأنا من الموجهين"

ويقوم مبتعدا.

كانت في حاجة إلى شيء هائل يمكنه دفع الحزن القابض في حلقها،
تقوم إلى أشياءه، تطوح بالكتب المفتوحة والأوراق والأقلام.

يسألها: "هل لقيتي في سفرك غيري؟"

وصغيرة كانت الابتسامة في ملتقى شفثتها، فتأخذه إليها، تُخفي في
صدره حزنا يلمع في عينيها، تحيط وجهه بكفيها، وبروحها تأخذ في
الصعود به.

ولما عادا من غشيتهما، كانت النافذة مواربة، والفراغ شامل.

يناديا، ويبحث عنها في فوضاه،

تناديه، وتبحث عنه في بقاياها،

فلا يكون أحد.

لي غواية الموت

ما إن أفيق منها، لا يعود للمسها وجود في حسي، أمد يدي، أبحث في طوايا الفراش عنها، في الفراشات الزرقاء المرسومة كالدانتيللا، في البتلات الملونة، وفي بقايا الحياة المقطرة، تتشربها الزهرة الاستوائية الغامضة في مركز الملاءة، فأجدها هناك، تستحم في الدفء الكامل، تتسامر بين أشجار الغابة الحارة، في سرّة الأرض.

أشوفها تشدو بأناشيد القداسة والشوق، فأقربُ إليها، لتشيل عني مشاق البعد والوحشة، وأسمَعُ مجيئها.

في ذاك الصيف، حين تتهدل عناقيد العنبة التي أنضجتها الشمس، وفروعها المتعرقة، كفزع خائف يلجأ إليك، معتذرا عن اضطراره للبقاء، ينبت نصي الأول، وأراها في ظل التكعيبة، شعرها العذب ما زال مبلولا، تحاول الشمس أن تنال منه، فلا يسمح له الماء الذائب بين خيوطه، وتبقى هي أمامي، مستسلمة لصلاة غامضة، فيقرُّ سكون هادر، لا يتخلله غير خشخشة الورق الناشف ينازع وهج الظهيرة.

أقول لها: "كلما وجدنتي وحدي أراني شاعرا تحقق في زمن الخدعة
المكحلة بالحقيقة"

وأقول لها: "ما الذي لنصّ أن يفعله؟ أ يخبر بالضال في مسارب
التاريخ، يمؤّه على اليومي، يدفع عن كاهله العالم ويلهو بالخيال"
فتنطق: "أ تقدّر أن تتجاز الغابة وأن تخرج بريئا منها؟"

ستحلّ لي أن أحلّ العقدة المحطوبة على صدرها، أم ستحلّ لي،
ويبين لي الجسد المرمرى الجامد، خافت الضوء، ملفوفة خطوطه جميعها
في غير تداخل، شفيف كمصباح، لا ظل له، في النور أو في النار، أو في
الوهج المتقد من كونها هنا، كمن تستحيل في النور إلى نور، وفي النار إلى
نار، وفي الظهيرة إلى هاجرة، وفي الليل إلى صفحة نهر يجري في صمت
رخامي، روح صلبة، حلّت في بدن لا يرى.

وأخرج من تحت السماء، يمسنى هواء بارد، وأخطو فوق بلاطات
رطبة منحولة، تنزع من جوانبها حشائش طازجة، بدت كأنها مولودة
توا، رقيقة هشة، تنتصب حيث الخطوات، فكأنها ستموت الآن، وكأنها
كانت لتمارس تجربة فريدة، فأغلق عينيّ وأبحث عنها في الظلمة، خلف
الجفنين، في العالم الواهن، الذي يرتهن وجوده بخطوات البعد عن

الضوء، أستبصرها، يجتاحني النهار، فتتشكل سديما ينطق باحتمالات
التلاشي، سحابة من هشيم الليل، تذوب في سفرِ الريح، وتنمحي في
النظرة العاشقة إلى الحبيبة تتبعني، فتجرف كالحلم إلى موطن الموت.

تساءلني: "أملك أن ترتاد الغابة وتعود بريئا منها. أن تخطو في
الأرض اللدنة، المكسوة بسقيط الورق المعروق بذكريات الموت، تمر
تحت الأفرع الكثيفة المتواشجة ، كأنها لتلقف الشمس، فتحيل سقوطها
إلى قوس قرح من الألوان المتخالطة الصافية، مزيج يزبح الواحدية عن
الكون الفرد، يحوش عنك التيه في البرك الشاسعة بوحشيتها السرية
الهادئة، تنتظر خطوك فيها، لترجف خيالك السائل على سطحها الكامد
كمثل المفاجأة، أو لتأخذ بك إلى مكانك النهائي في قلبها، حيث يسكن
قمر قديم مثقل بالأرواح"

وأفكر، إلام يستحيل الجمال الميت! فأوقن بروعة الوجود السادر في
موته، والمعقود على صدر الحبيبة اللاهية بالأوتار، ترحل إلى أطراف
الكون، تجمع الحبيب وترنم:

سيدي البشري

أيها الأيل الراكض بين الأسفار

تبجل نورك

أرن إليّ من شتاتك

دع خفق وجودك

ينهمر إليّ من تلتك

إلى كفيّ

الريقتين كالخبز

أودعه قلبي

أيقونةً بتول

وليكن قلبي محرّابك

ونطقي رسالتك

فأقوم إليها، أزيح أعواد البردي الندية، أخلق إليها طريقي، وتخطو

إليّ عبر غابتها، فتأتيني، وآتيها، فتتمهلني، وتنبيء:

"هكذا ستكون ممسوسا بها مررت به".

دخول في قبة الوقت

وظلت حيرتي لأصيف عديدة في فهم الطراز المعماري لذلك البناء القديم. مثل معرفة أولى، كنت أجده مزاجا من تواشيح قرطبية، نقرات دفوف، أناشيد كورال كنسي، وبعضا من صليل حرب الإسكندر، وقليل من الموايل الشعبية للقاهرة الراحلة.

لم تكن ذاكرتي لتشفع لي جهلي، ولم تكن البوابة الكبيرة، التي اجتازها يوميا، لتمنحني سر التراكيب معرفة سائغة، ولكنها تسمح لي بالمرور في حلقيها دون اعتراض.

أجتاز الممر الرطب، تكاد الطحالب العشية تنمو في فضائه، وجوانبه الحجرية، وفي الشقوق بين البلاطات، المتباعدة بفعل زمن خاص، لم يمر إلا من هنا، أكاد أشم رائحة وجودها، واسمعها تنمو من حولي، وخفوت سريان العصارة الصاعدة في طراوتها العشبية.

يصعد جانبا الممر، في نضارة كامدة، غلى سقف ثيب مقبب، مطلي بلون صار لا يبين، آثار الفرشاة العريضة تمضي في هدوء، تشكل

خطوطا كامنة في العتمة، بارزة غائرة في حَدَر، ربما لم تلمحها عين
"المبيّض" الكهل.

هل كان كهلا بالفعل، أم تُراني خِلَّتَه أحد الأسلاف، نصب خيمته
واستوطن الزمن المخلوق له، هنا، ثم أفل، ولم يبق منه سوى هذا اللون
المجهول، وتلك الخطوط الخافية في السقف الشاهق.

كيف كان إليه هذا الكهل؟ هل لم يسمع بما يكل أنجلو وسيستينا،
هل لم يفكر بقداسة الصعود إلى المشاهق، والتحليق في فضاء الأسقف
الخام، وتطريزها بالتكاوين، والقديسين العراة إلى من غلالة وحيهم،
المقشور في بعض نواحيه، والعرّافة في قدس النفس المدركة بالنفس،
وهل لم يعرف يوشع وداود وجالوت وجوديث وهامان ويوثيل
وحزقيال ويونس وزكريا وإرميا والحسين وعروة وصلاح الدين
والمتنبي ويسوع ومعاوية وحنظلة وأدونيس وأوزوريس وجيرونيكا
وأورشليم وبغداد ودمشق ومصر ابيم والرب على قبة السماء يتهيأ لأيامه
السته.

لعله لم ير شيئا، ولعله ملّك المعرفة والجهل الواحدين قبل انفصالهما،
أو ربما شهد انفصال النور عن الظلمة، وخلق الموت.

يا له من "مبيّض" فتى، أزلي. أذكره كلما مررت بالعُقد الجانية
المجوفة والمسدودة بالحائط الواسع، محاريب قائمة للصلاة الحرة، أرحام
تسكن إليها زهريات رخامية بيضاء، أجنّة أبدية، لماً تولد، من غير زهر
أو طين، أرحام باردة، تنفي احتمال وجود لون آخر في المكان، ركام من
الثبات الفائر، سكون صاحب، صخب من غير حاجة إلى سمع، ظاهر
، موجود بالقوة والفعل معا، جوهر يحرك العالم، ولا يتحرك.

عند نهاية الممر، وفي تمام اللحظة التي تنتهي عندها حدود القبة،
وتبدأ تتكشف السماء، عبر فروع "العنبّة" الناشفة، أسمعها؛ الحارس
النوبي الكهل، يجيبني، لم أفلت منه مرة، دائما أسمعها، وكثيرا لا أراه.
تحسبه روحا مهاجرة، ألفت المكان فسكنت إليه، وأعجب، هل لا ينام
قط، وهل لم ينس قرите الصغيرة الغارقة. لم أكن أفهم أغنياته، أسمعها
دندنة تردد في الحوش الواسع، فيصير لأوراق العنبّة الناشفة خشخشة،
وتمتلئ كل التجاويف تحوّم في الزخارف، اسبه باللغز المثير، الطلّسم،
ترتيل كهنوتي غامض، وكأنه ليدفع عن قرите الموت. أسأله، يجيبني بأنها
أغنيات للعروس ليلة زفافها، وللقمر الغاضب، وللولد الراحل، وفي
كل مرية يدعو لي، ويقول: "الحمد لله". ذات مرة، قلت له: "بعد كل

هذا الألم والغربة"، فأجابني مبتسماً، فبانَتْ منابت ثغره الكهله لامعة، وكأنها من الفخار المجلَّز، المعمول كؤوساً للتقدمة: "الخير هو اللي فاض على بلادي، أما أنتم فلا يفيض عليكم غير المجاري"، واتسعت ابتسامته، وضحكت.

وفكرت إنه أحد الكهنة الشعبيين، يجوز معرفة الضد الكائن في الضد، ويتلو أوراد الفصحاء، ويقبل القرابين من تمر جاف وخرق نسيج وألوان، وأشياء معمولة بالخصوص، مشغولة باليد، يُرسم المعوزين حكماً، وينصّبهم على بطونهم وقبائلهم، ويظل في الآن ذاته حارساً كهلاً، باقياً مثل تميمة معلقة في عنق أسطورة صبية، فلا تستحيل إلى حقيقة فيدركها الموت، لا يغادر بوابته إلا إلى حجرته الصغيرة الخافية، في نهاية الممر، فوق جذر "العنبّة"، تحت السلم البادي من تحت السماء، ولا يصعده أبداً.

انتهاءاتٌ أُولَى

ويبقى السري كبر، يضيق بداياته، يسعى إلى الامتداد،
فيسري في الكائنات، ويحل في ألوان الشمس السبعة،
وفي غموض الزمن المقبل، يصعد من طين اليوم،
إلى زهرة ترتقب الرائحة الممزوجة باللون المرغوب،
وغدا غير منته.

منتهى العشب أول الرمل

تسكن قدماه الحافيتان تلة العشب دائم الخضرة، يرتل في نغم
المواكب القدسية بعضاً من أحزان الموتى وفرح الآتين، وفوق العشب
يوقفونه، وفوقه شجرة التين، تمد خرافتها وفروعها المتخمة بصمت
الظل وخلاصة الطين.

تشكل النطفة في الرحم المقدس القابع في المحاريب، وفي عقد
المساجد، وبقايا الماء في أواني شعب مغدور، وتفاسير الرجل البري
للطبيعة والجسد الإنساني والآلهة، ويتشكل النور هالة تتبع الرأس.

يتدلى الفرع المثقل برغبة المحاصرين له، يشتبك بالنور، والنور
بالقلب، والقلب بالدم المعلن في الأطراف، فتمزق في صرامة بساطة
اللون في الرحابة، بين التينة والبحر السماء، وتميل أوراق الأخضر
الموشومة في جذوع اليوم إلى مبتدأ الليل، فيبدأ يحتويها الظل اللابد في
فجاجة ثمر يداري المرأة المسوأة من شبق المدائن، المتربصة بشغف

البرِّي الساعي إلى معارفه بالأشياء، والأسماء، فتخلع عليه الأشياء،
والأسماء، والجسد الصُّراح، وتُقَرُّ في معارفه أن للصوت تراكيب
وألوانا، وللأشياء تفاعيلها، وللأسماء شفرتها، وللجسد أوضاعاً
وتجليات لم يألُفها، فيتبعها، تخوض به في منتهيات العشب وأوائل
الرمل، يفوت إلى الخرافة السارية من الجسد النابتِ، إلى الجسد المدلَّى من
مرارة الثمر، يذوب في شغف المتحلقين، يرقبون خلاص آخر التفاسير.

موت ثان

وكانت الطيور دقيقة الريش تهبط على الجسد المصلوب، تلتقط قطعاً صغيرة من البدن المخمَّر في الشمس، وبضع قطرات شفافة متخثرة، وتطير إلى نهاية الذراع المدقوق في العرق الصُّلب، ثم تهوي فاردة أجنحتها، متناثرة، ممتزجة بالحصى الشوكي، حول الجذع الصالب، فينبت النجيل، وزهرات برائحة البرتقال، ولون الحواجز الخشبية، القائمة، تفصل الطيور عن المساكن، يتهلون، أن قُم، يداومون حتى الذُّوب، فيصيرون شوكا، حادا، لدنا، على طريق الرجوع، وتصير الزهور طيوراً، تجوّم في لمعة القطرات الآخذة في الصعود إلى الحياة، فتصحو الخوابير المارة في الألم المكنون إلى الموت، ويهبط البدن، الجسم، الجسد عن الجذع المنصوب، يخطو، فيصير الحصى في حفائه وجعا.

يجلس إلى حقل الشوك الممدود إلى نهاية النهار، يبكي، فتهرع الطيور إلى قطرات دمه، تلتقطها قبلما تكون إلى الأرض.

جمرة الارتياذ

رائحة موسيقى خافتة، تتكاثف لتملاً فضاء المسافة بين المبعث وخطوط جسدها الأنس بالنغم، يقرب بها، تتقاصى يداها، تجوبان مزاجات البرية، تفوحان بمقاطع من طقوس تقرب، فتألف إلى اللحن الغاشيها، تذهب بالعينين إلى لحظة وصول، يبين لإغضائهما الليل الأبدى، متلاوناً بالضوء النافذ في الجسد الضام العين، الراحلة في الجسد المنفرد، البادئ في الخروج عن تفاصيل الذات يستلُّ أوائل الحركة من جمرة البدن، فتستطيل حتى تشمل الكون الكائن في لحظة الخلاص، فيتبدل الزمن المقاس بالأشياء إلى وهج آني، ويدوم الآن، فتتمازج آناء البدن المطلق بمغاليق الأكوان المستورة، تشتبك الأسرار بأطراف الكف العائد من سماء الفعل ليسكن إلى ليونة الفخذ المرتاب، يجلُّ جاذباً الداخل إلى أقصى إمكانات النغم، وحدود الخارج يفلتها من مواضعها، فينبعث الملح، شذرات من مادة الخوض، تسري في الملامح المتواترة، تلتحم بالانفلات، وتظلُّ، حتى يشج أول العري أول

الملتبس، فتحتد الحركة بشهوة منتهى الوصل، ويسبح الخصر في شطحات تغفل كل اللحظات، يراوح بين الوقف والتهيؤ، ويصعد، ويلين الإياب مترعاً بتواريخ الرمز، لتحوم الكفان، تراوحان بين مادة القرابين ومعاني الحركة، تتلاقيان، تتساردان عن مواقيت البعد، تتنايان، ويداوم الخصر مراوحاته، مشغولاً بخواطر الجسد، مراوغاً الحدود، وتظل في وصالها، تمد يديها إلى أنأى دلائلها، وترتاد أحوال الحركة، ومقامات السكون.

احتمالات نهار

من غبش الفجر المغسول بالندى يصعد نهار، يعتلي رؤوس الجبال في أطراف المدينة، ويبقى قليلا في المعبد المهجور، هناك، يفرد نوره على تعاشيق اللون فوق زجاج النوافذ، ويظل بعضه ساكنا على حواف الغبار، القابع خلف القديسين المرسومين تحت خيوط عناكب، تعكس ظهورها المصقولة بخار الضوء إلى الوجوه المحشوة بالسكينة، فتبين خابية، مطموسة الإحساس بدُّل الخطيئة الهائجة على أطراف أصبعهم، يقبضون بها على دَلَّيات من ضحايا الاعتقاد بالصخور، وتنهال ذرور الضوء على الكتب المكسورة بين أيديهم، والكلمات الزجاجية المهشمة خلف حوائط المعبد، تتناثر بين صبارات آخذة في الاصفرار، أكل النمل الوحشي حروفها المجردة، وجعل التشكيلات منازل يباركها نهار، يمرق في سبيله عبر باب خشبي، له رائحة الوقت المطمور، ورُشم في أنحائه أسماء المحطوطين في النوافذ، ويكون إلى عشب المنحدر الجاف، يسيل بأشعته الغاربة إلى الوادي، يحمل ظلال الطير الراحلة إلى مدنها،

وعبقَ الريح الساكنة دهورا في معبدها المهجور، وابتعد في الوديان، وفي
أطراف الأشجار المسافرة، يتفتت في الأشياء والحوائط، ويكمن في
الزوايا المهملة، وبين أهداب الهوام، وفي الشقوق، وعلى حبيبات التراب
الثقيل، ويعلق بنهايات يوم ذاهب.

مداخلات ليلية

مراسم الليل الجائي تشرع في الولوج، يسقط عن عرشه المرسوم في ملامح المفترقات مَلَكٌ، يحكون شاهدا من مداد زيتي، تحمّر في طراوة إماءٍ، هُصرت أجسادهن حتى بانث الروح منهن، يلهثن في قبضة بنعومة رياش يتماوج على فراش خلاسية.

وفي مكامن الظل، تحت عروق الورق الأخضر، حيث يسري الماء الممزوج بالطين الخالص والدود، يهجع شعب موفور الوقت، من طيور بيضاء، بلا سوء أو عيون.

وفي حَبَّات التراب المنتصبة على حد الطلقات المارقة، يحل الموت في لحظة مباغته، فيسقط محارب، نفذ جوعه، ولما يآته المدد.

وفي المقهى الغابر، على المقاعد المهياة للمتروك، يتسامر الصحاب، في الليلة المنقضية، ينغمرون في الأمس، وفي الأبد الآتي، يغيبون في صمت طقسى، يتنابه بين الحين والحين كلام.

وفي السماء، كان قمر عتيق، يبحث عن زمن مغاير لليل، مغاير
للنهار، تضيق به منازل، يمرق إلى مداره الملل، وحزن ضوء وحيد،
يهبط على الكون مساء ثقيلًا.

وفي المساء، الموشى بنشار كلام لما يكن، وفتات ضوء من نجوم
قاصية، يشجُّ الباحات المنثورة، يعلقُ بحواف الظل والأجساد، تنزع
الخلاسية، في خفة موهوبة، لوامع الزمن المعلقة في أطراف الملك
المغدور، وتراءى صور المحارب، مغروزا في قلبه الدرب الترابي، ويثقل
الليل المهموم على أجنحة الطيور، فلا تطير أو تُبصر، فتناجي القمر
المجهد في سأمه.

وفي المقهى، يغادر الصحاب، وعلى أنحاء المقاعد المهملة، تبقى
بضعة حروف مهملة، وبعض من صمت.

فهرس

5 تداعيات الظل
7	شرفة
8	قصيدة
10	رؤيا خروج
14	دائرة العُشبِ
18	حدُّ الألم
19	رَجْفُ الآلهة
21	مَثْنُ الظِّلِّ
23 رنائم علقمت بالريح
25	تميمة
26	مَلْحَةٌ مُغْلَقَةٌ
28	صهد عابر
30	أنا أنت
32	كُنْ
35	سفر الواحد
39	أول الرؤيا
41	مراودات الوجد
43	صحائف الخيل
45	حرف
47 غوايات
49	جسد أقصى

52	صعود فرد
57	لي غواية الموت
61	دخول في قبة الوقت
65 انتهاءات أولى
67	منتهى العشب أول الرمل
69	موت ثان
70	جمرة الارتياح
72	احتمالات نهار
74	مداخلات ليلية
77	الفهرس